مخطط المحاضرة الثانية: التطور التاريخي للمجتمع الدولي

العصور القديمة

✓ **حضارات الشرق القديم**

1. حضارة بلاد الرافدين
2. الحضارة الفرعونية
3. حضارة الصين القديمة
4. الحضارة الهندية

✓ **حضارات الشرق القديم**

1. الحضارة الإغرقية
2. الحضارة الرومانية

ملامح المجتمع الدولي في هذه المرحلة:

☆ وجود كيانات سياسية متميزة
☆ إبرام المعاهدات الدولية
☆ احترام الحدود
☆ إيفاد البعثات الدبلوماسية
☆ تسوية النزاعات عن طريق الصلح والتحكيم
☆ التبادل التجاري المحدود

العصور الوسطى

✓ **المجتمع الأوروبي المسيحي**

1. سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية
2. صراع الكنيسة والحكام (السلطة الروحية والزمنية)
3. النظام الإقطاعي
4. الحرب العادلة وغير العادلة، وقيام الحروب الصليبية
5. قانون الحرب وقانون السلام
6. استحداث طرق سلمية لتسوية النزاعات
7. ظهور النظام الدبلوماسي والقنصلي

✓ **المجتمع الإسلامي**

1. عالمية الإسلام
2. إحلال السلام (دار الحرب، دار العهد، دار الإسلام)
3. القواعد الدبلوماسية
4. أنسنة الحرب

العصر الحديث

✓ **المجتمع الدولي الأوروبي الحديث**

1. النهضة العلمية
2. الاكتشافات الجغرافية الكبرى
3. معاهدة وستفاليا سنة 1648
4. الثورتان الفرنسية والأمركية
5. التحالف الأوروبي

✓ **المجتمع الدولي المعاصر**

1. الحرب العالمية الأولى والثانية
2. الأحلاف العسكرية والتكتلات الاقتصادية
3. المنظمات الدولية بأنواعها
4. تنوع مجالات العلاقات الدولية
5. الثنائية القطبية في إطار الحرب الباردة
6. ظهور النظام العالمي الجديد
7. التدخل الإنساني والحرب على الإرهاب
8. الثورة الصناعية الثالثة

المحاضرة الثانية: تطور المجتمع الدولي

المرحلة الأولى: المجتمع الدولي في العصور القديمة (3100 ق.م – 476 م)

ويستشف ذلك من خلال الحضارات التي سادت في تلك الحقبة:

✓ حضارات الشرق القديم:

ا. **حضارة بلاد الرافدين:** يمثل إبرام معاهدة عام 3100 ق.م بين كل من ملك مدينة "Lagash" وملك "Umma" بخصوص إجراء الصلح وحرمة الحدود مع اللجوء إلى التحكيم في حل النزاعات المتعلقة بها، محطة مهمة في التأسيس للعلاقات الدولية.

2. **الحضارة الفرعونية:** تميزت بعقد معاهدة بين رمسيس الثاني فرعون مصر وخاتوشيلي الثالث ملك الحيثيين، حوالي سنة 1259 ق.م، والتي أنهت حروب استمرت لأكثر من قرنين من الزمان للسيطرة على أراضي شرق البحر الأبيض المتوسط. حيث تضمنت المعاهدتين بنودا قانونية وعسكرية ودبلوماسية نظمت العلاقات بين المملكتين، فقد نصت على الصلح والصداقة وإقامة سلام دائم وحرمة أراضي الدولتين وعدم الاعتداء والدعم المتبادل، مع التركيز على أهمية المبعوثين والرسل الدبلوماسيين وكذا مبدأ تسليم اللاجئين دون التمييز بين المجرم العادي والسياسي.

3. **حضارة الصين القديمة:** أقامت الصين علاقات مع الهند وروما وعرفت مبدأ حرية المعتقد ونظام التمثيل الدبلوماسي والمؤتمرات المختلفة، وقد ظهر في القرن 6 ق.م الفيلسوف الصيني "كونفشيوس" الذي نادى بضرورة سمو المبادئ الإنسانية وعدم التمييز بسبب العرق أو اللون أو اللغة أو الدين، مع حماية المدنيين أثناء الحرب، كما نادى بضرورة إنشاء اتحاد بين الشعوب.

4. **الحضارة الهندية:** عرفت الحضارة الهندية تدوين مجموعة من القوانين التي أطلق عليها "قانون مانو" الذي وضع في حوالي سنة 1000 ق.م، وتضمن مجموعة من القواعد المتعلقة بكيفية سير العمليات الحربية، وعدم المساس بالمبعوثين الدبلوماسيين.

✓ حضارت الغرب القديم:

ا. **الحضارة الإغريقية:** تجلت أهم انجازات الفكر اليوناني في دولة المدينة كشكل سياسي جديد طوره الإغريق في القرن 6 ق.م، حيث تميز هذا النمط بقيام دويلات صغيرة في فضاء جغرافي وثقافي موحد ومنسجم نتيجة لصلات الجنس واللغة والدين، والشيء الوحيد الذي يعطي هذه الوحدات السياسية طابع الدويلات هو استقلالها وقوتها الاقتصادية.

وقد تم تطوير نظام دقيق للاتصال الدبلوماسي والقنصلي والتبادل التجاري، ووضع مبدأ التسوية بالتراضي أو المصالحة التي تشير إلى وقف الأعمال العدائية وتسوية النزاعات عن طريق التحكيم، ووضع بعض القواعد التنظيمية أثناء الحرب كقاعدة وجوب إعلان الحرب قبل البدء فيها وتبادل الأسرى واحترام اللاجئين، مع تبني نظام الاتفاقات العلنية كوسيلة قانونية لتنظيم العلاقات فيما بينهم وأشهرها معاهدة تعزيز السلم بين إسبرطة وأثينا سنة 446 ق.م، إلى جانب التحالفات والهدنة المقدسة التي تعقد خلال فترة الألعاب الأولمبية.

2. **الحضارة الرومانية:** لم يختلف الرومان كثيرا عن الإغريق في اعتقادهم بالتفوق على ما عداهم من الشعوب الأخرى التي هي في نظرهم "بربرية"، ما يعطيهم الحق في السيطرة عليها وصهرها في البوتقة الرومانية، لذلك تميزت علاقة الرومان بغيرهم من الشعوب والأمم الأخرى بالقوة عن طريق الحرب، وهو ما ساهم بشكل فعال في سيطرة روما على معظم أرجاء العالم القديم آنذاك.

هذه السيطرة جعلت الإمبراطورية الرومانية تتبع نوعين من القوانين في علاقاتها؛ القانون المدني الروماني الذي يطبق على الرعايا الرومان، وقانون الشعوب للفصل بين الرعايا الرومان والرعايا الأجانب أو الغرباء وعين لهم قضاة خاصين.

ومع ذلك لا يمكن الإنكار بأن العلاقات الدولية في عهد الرومان قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من التطور والانتظام، من خلال المؤتمرات والاتحادات ضمن إطار عام يستهدف خدمة الطموحات الخارجية لروما، كما عرف الرومان المعاهدات صياغتها وأشكالها، ومن ذلك معاهدة قرطاجنة في حدود سنة 306 ق.م لإقامة السلم وحماية مواطنيها لدى الدول الأخرى في إطار مبدأ المعاملة بالمثل، فضلا عن إقرار مبدأ احترام العهود وقدسية المواثيق كأساس لاستقرار العلاقات الدولية.

المرحلة الثانية: المجتمع الدولي في العصور الوسطى (476 م ـ 1453 م)

✓ المجتمع الأوروبي المسيحي (الإمبراطورية الغربية):

يبدأ التأريخ له بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة 476 م بعد انقسامها سنة 395 م إلى امبراطوريتين شرقية وغربية، وقد أدى هذا السقوط إلى ظهور عدة ممالك وإمارات في ظل عدم وجود سلطة عليا مركزية، وسادت الفوضى والحروب في العلاقات بين هذه الأقاليم الأوروبية نظرا لرغبة كل منها في فرض سلطته، إلى غاية سنة 800 م أين قام البابا ليون الثالث بتتويج شارلمان كأول حاكم للإمبراطورية الجرمانية المقدسة، وسادت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وظهرت نظرية السيادتين التي قامت على أساس أنه للشعب كيان

روحي يخضع للكنيسة وهي السلطة الدينية، وكيان آخر مادي تختص به الدولة يطلق عليه السلطة الزمنية، مما ترتب عليه تسابق بين البابا والإمبراطور الذي يمثل "الحق الإلهي" للاستئثار بكل مظاهر السلطة والهيمنة داخل إقليمه الأمر الذي أدى إلى انتشار نظام الإقطاع.

لذلك شهدت العصور الوسطى في أوروبا صراعا حادا بين الكنيسة والأمراء، لينتهي الأمر بانتصار السلطة الزمنية تراجع وتقهقر دور الكنيسة في مقابل بروز هيمنة الدولة القومية ذات السيادة.

ومن أهم ما جاءت به الحضارة الأوروبية المسيحية في العصر الوسيط، هو إرساء قواعد قانونية لكنها نسبية وغير شمولية لاقتصارها على الشعوب المسيحية فقط، وأشخاصها هم البابا والملك، منها ظهور النظام الدبلوماسي والنظام القنصلي، وتقسيم القانون الدولي إلى قانون الحرب المطبق أثناء الحروب والنزاعات، وقانون السلام الذي يطبق وقت السلم، واستحداث طرق سلمية لتسوية النزاعات مثل التحكيم والوساطة.

إضافة إلى ظهور فكرة الحرب العادلة وتحريم الحرب غير العادلة، وذلك بإضفاء الطابع الديني والشرعي والأخلاقي على الحرب التي تخوضها الإمبراطورية الرومانية ضد دولة أخرى، طالما وجدت أسباب عادلة ومشروعة تدعو إليها وأن يرتكز قرار الحرب على سلطة شرعية، وهي نظرية ترتب عنها آثار سلبية تجسدت في الحروب الصليبية التي امتدت على مدى قرنين من الزمن، في علاقتها مع الدولة الإسلامية التي رفضت الاعتراف بها والدخول في علاقات معها على أساس المساواة، من منطلق نظرة الاستعلاء والاحتقار لغيرها من المجتمعات.

✓ المجتمع الإسلامي (الإمبراطورية الشرقية):

ويبدأ بميلاد الدولة الإسلامية عام 622 م، التي قامت على وحدة الدين في مصدرها وفي جوهرها تأكيدا لوحدة الإنسانية جمعاء في أصلها وفي اعتقادها، وقد ترتب عن ذلك تأثير الفكر الإسلامي في ظهور جملة من المبادئ والقواعد التي أثْرت القانون الدولي، ومنها:

ا. **عالمية الشريعة الإسلامية؛** من خلال مبادئ إنسانية ذات صبغة عامة تعبر عن رسالة حضارية سامية، تؤسس لتنظيم حياة المجتمع الدولي بشكل دائم في إطار من المساواة وعدم التمييز بين الشعوب والأمم لأي سبب كان.

2. **إحلال السلام وعدم العدوان؛** فقد تميز الدين الإسلامي بمفاهيم ورؤية مختلفة تماما للعلاقة بين السلطتين الزمنية والروحية على خلاف المسيحية، حيث أنه ربط بينهما بطريقة تجعل الفصل بينهما فصلا كاملا مسألة صعبة بل ومخالفة للتشريع الإسلامي.

وبناء عليه ميّز الإسلام بين:

أ. **دار العهد؛** تشمل الأقاليم المحايدة التي لا تخضع لحكم الإسلام، لكن لها عهد محترم مع المسلمين بموجب صلح على شروط يعقد لترك القتال مع المسلمين، وذلك على أساس إقرار حقوق معينة وتحمل واجبات مقابل ذلك.

ب. **دار الحرب؛** لا تقام فيها شعائر الإسلام ولا تنفذ فيها أحكامه، وتقوم العلاقة بين دار الإسلام ودار الحرب من خلال السماح للرعايا الأجانب من هذه الدول (المستأمنون) بدخول إقليم دار الإسلام مؤقتا بموجب عقد الأمان.

ج. **دار الإسلام؛** الأقاليم التي يدين سكانها بالإسلام وتطبق فيها الشريعة الإسلامية على رعاياها في جميع القضايا التي تتصل بالنظام العام والمنازعات. إضافة إلى أهل الذمة، وهم أشخاص ينتمون لغير دين الإسلام لكنهم مواطنون تتعهد الدولة الإسلامية بموجب عقد الذمة بحمايتهم وضمان حقوقهم وحرية عقيدتهم مقابل دفع الجزية، على أن تخضع معاملاتهم غير الشخصية لحكم الشريعة الإسلامية.

3. **الاهتمام بالجانب الدبلوماسي؛** حيث أولى له الإسلام عناية خاصة وأصبح يخضع لقواعد دقيقة وتنظم في أصول واضحة خاصة حماية المبعوثين الدبلوماسيين وحسن معاملتهم، كما استخدمت الدبلوماسية في توثيق العلاقات التجارية والثقافية، وأيضا وسيلة لتحقيق التوازن الدولي وهو ما استدعى قيام سفارات دائمة بين بغداد وبيزنطة وأخرى مماثلة بين قرطبة والقسطنطينية.

4. **إرساء قواعد دولية للتعامل في الحرب؛** والتي تهدف للحد من آثار الحرب إلى أقل قدر ممكن كقصر الحرب على المقاتلين فقط، وتوفير الحماية للأطفال والنساء والشيوخ، عدم المساس بالأعيان المدنية، والنهي عن تدمير دور العبادة والحفاظ على حياة رجال الدين، وهي القواعد المتعارف عليها اليوم بما يطلق عليه القانون الدولي الإنساني.

المرحلة الثالثة: المجتمع الدولي في العصر الحديث (1453 م ـ إلى اليوم)

✓ المجتمع الدولي الأوروبي الحديث: (1453 م ـ 1914 م)

وقد ساهم في ذلك مجموعة من العوامل:

ا. النهضة العلمية:

ساهمت النهضة العلمية والفكرية في إثراء وتطوير القانون الدولي من خلال جهود المفكرين والفقهاء وإنشاء الجامعات ومعاهد القانون؛ فظهرت العديد من المدارس الفقهية كمدرسة القانون الطبيعي ورائدها "فاتيل"

ومدرسة القانون الوضعي وتزعمها "هوبز" و"سبينوزا"، والمدرسة التوفيقية ورائدها "جروسيوس" الذي يعد أب القانون الدولي الحديث.

وقد كشفت كتابات الفقهاء الوضعيين عن عدد من المبادئ:

- سيادة الدول والمساواة بينها، ومنه فالمجتمع الدولي عبارة عن مجموعة دول متساوية فيما بينها.
- القانون الدولي هو قانون دول، ولا مجال لتطبيقه على الأفراد.
- مصادر القانون الدولي هي المعاهدات والعرف.
- الحرب مشروعة، لكن في نطاق القانون الدولي.
- امتلاك الدولة لمجموعة من الحقوق يفترض احترامها، لا سيما حرية الملاحة في أعالي البحار.

2. **الاكتشافات الجغرافية الكبرى:**

لقد كان لحركة الاكتشافات الجغرافية دور كبير في تطور القانون الدولي؛ فاكتشاف أمريكا سنة 1492م ساهم في فتح مجال جديد للقانون الدولي التقليدي من خلال تسابق الدول الأوروبية للحصول على مستعمرات خارج أوروبا، الأمر الذي مهد لظهور الحركات الاستعمارية وظهور قواعد اكتساب السيادة الإقليمية.

كما أدت الاكتشافات إلى تطور في عدد من مجالات القانون الدولي كنظام حرية الملاحة في أعالي البحار، الذي نتج عنه توسع نسبي في علاقات التبادل التجاري الدولي وتعزيز الفكر الرأسمالي، خاصة عن طريق إنشاء شركات كبرى ذات مصالح اقتصادية، حصلت على تفويض سياسي للتعامل مع الكيانات الدولية الأجنبية باسم دولتها.

3. **معاهدة وستفاليا سنة 1648:**

يجمع الفقه الدولي على أن هذه المرحلة هي مرحلة نشوء القانون الدولي، بتأثير معاهدة وستفاليا لعام 1648 التي وضعت حدا لحرب الثلاثين عاما بين الملوك المسيحيين من الكاثوليك والبروتستانت في إطار حركة الإصلاح الديني، حيث شكلت نقطة تحول حقيقية في تاريخ المجتمع الدولي، بالنظر للمبادئ التي أسستها في علاقات الدول الأوروبية المسيحية للتعاون والمشاركة بدلا من السيطرة والإخضاع، ومنها:

أ. إبراز أهمية المعاهدات الدولية؛
ب. التأسيس لما عرف لاحقا بدبلوماسية المؤتمرات؛
ج. الاعتراف بانحلال الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛

د. إقرار مبدأ سيادة الدولة القومية؛
هـ. إحلال نظام التمثيل الدبلوماسي الدائم؛
و. إقرار مبدأ توازن القوى بين الدول الأوروبية.

4. **الثورتان الفرنسية والأمريكية:**

قامت الثورة الفرنسية عام 1789 بغرض القضاء على الاستبداد السياسي، وكان من أبرز نتائجها التي لم تتعد المجال النظري بعد أن انتهكها "نابليون بونابرت" في حروبه على الدول الأوروبية:

- إنهاء الملكية المطلقة بما في ذلك القضاء على الإقطاع وإعلان النظام الجمهوري.
- التأكيد على أن السيادة ملك الشعب، يمارسها عن طريق نواب من اختياره.
- التأكيد على حقوق الإنسان والمواطنة، والاعتراف بالحريات الأساسية التي يتمتع بها الإنسان في إطار الحرية والأخوة والمساواة.
- إقرار حق الشعوب في تقرير مصيرها بالاستقلال واختيار نظام الحكم الملائم للدولة.
- ظهور مبدأ القوميات.

وبرزت بوادر تخفيف الطابع الأوروبي عن المجتمع الدولي مع اعتماد دولة مسيحية مستقلة غير أوروبية باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية في 1776 كبادرة لإنهاء حركات الاستعمار، وظهرت معها الدولة الفدرالية كشكل سياسي غير ملكي جديد على الساحة الدولية، الأمر الذي فتح المجال لموجة حركات الاستقلال على مستوى دول أمريكا اللاتينية.

وقد ترتب عن خسارة المستعمرات الأمريكية توجه أوروبا للبحث عن مستعمرات جديدة نحو إفريقيا وآسيا، بدافع التوسع الاقتصادي خارج أوروبا، والبحث عن مواد أولية لصناعاتهم، وأسواق جديدة لتصريف منتجاتهم، إضافة إلى أهداف استراتيجية تتمثل في حيازة قواعد بحرية وفرص تموين السفن، مع تغليف كل ذلك بأداء مهمة حضارية وإنسانية من وجهة نظرهم لترقية الشعوب المتخلفة. كما توسع المجتمع الدولي أيضا بفتح أسواق جديدة في الشرق الأقصى، وزاد الانفتاح بدخول الصين واليابان إلى الساحة الدولية عبر معاهدات تجارية، فبهذه التطورات بدأ المجتمع الدولي يفقد طابعه الأوروبي الذي لازمه لقرون.

5. **التحالف الأوروبي:**

من الأحداث التي ساهمت في تطوير العلاقات الدولية كان انعقاد مؤتمر فيينا سنة 1815، الذي جاء بهدف إعادة التوازن الدولي للقارة الأوروبية بعد الحروب النابليونية، وقد لعبت نتائجه الإيجابية دورا محوريا في

العلاقات الأوروبية؛ خاصة من خلال تأكيد حرية الملاحة في الأنهار الدولية (الدانوب والراين)، تنظيم سلك المبعوثين الدبلوماسيين بحسب الأقدمية، إلغاء تجارة الرقيق الأسود، وضع نظام الحياد الدائم في المجتمع الدولي وهو الوضع الذي استفادت منه سويسرا.

ولضمان تنفيذ مخرجاته وتفادي الثورات ضد النظم الملكية، عقد "الحلف الرباعي المقدس" بين روسيا، بروسيا، النمسا وإنجلترا بحجة المحافظة على التعاليم المسيحية، وانضمت إليه لاحقا كل من فرنسا، إيطاليا وتركيا. وقد ساهم هذا التحالف الأوروبي في عقد مؤتمرات دبلوماسية، كمؤتمري لاهاي للسلام سنتي 1899 و1907 لضبط القواعد القانونية الدولية المتعلقة بحالتي الحرب والسلم، وكيفية حل النزاعات الدولية بصورة سلمية عن طريق التحكيم مما أدى إلى إنشاء محكمة التحكيم الدولي الدائمة.

✓ المجتمع الدولي المعاصر: (1914 م ـ إلى اليوم)

بعد الحرب العالمية الأولى انضمت الصين وإيران إلى المجتمع الدولي الذي اتجه شيئا فشيئا نحو العالمية، كما عرف توسعا كبيرا من حيث التركيبة وتنوع العلاقات؛ فقد ازداد عدد الدول وتأسست المنظمات الدولية بأنواعها، انطلاقا من عصبة الأمم والمحكمة الدائمة للعدل الدولي سنة 1920 بعد الحرب العالمية الأولى، ومنظمة الأمم المتحدة عام 1945 بعد الحرب العالمية الثانية لضمان استتباب السلم والأمن الدوليين وحل النزاعات الدولية بطرق ودية وتحقيق التعاون في مختلف المجالات، وتلتها أحلاف عسكرية وتكتلات اقتصادية، ومنظمات دولية إقليمية في إطار تفعيل مبدأ السيادة والمساواة بين أعضاء المجتمع الدولي، على غرار جامعة الدول العربية، منظمة الوحدة الإفريقية، حركة عدم الانحياز وغيرها.

أما في إطار تنويع وكثرة العلاقات الدولية، فقد مست العلاقات مجالات حساسة كحقوق الإنسان من خلال الشرعة الدولية لحقوق الإنسان التي تشمل صكوك دولية كثيرة، مع تدعيمها بالمجلس العالمي لحقوق الإنسان، ومنظمة العمل الدولية في المجال الاجتماعي، ومنظمة الصحة العالمية في مجال الوقاية من الأوبئة وتحسين مستوى الصحة، إلى جانب الاهتمام بقضايا التربية والتعليم من خلال منظمة اليونسكو، مع محاولة تنمية الموارد الغذائية لتفادي المجاعات عن طريق منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة، إضافة إلى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي لتحقيق الاستقرار المالي وتنمية التعاون الاقتصادي ودعم الشركات متعددة الجنسيات، دون إغفال الاهتمام بالمجال االبيئي وتحقيق التنمية المستدامة في ظل التغير الإيكولوجي العالمي.

كما ظهرت مجموعة دول العالم الثالث نتيجة للحركات التحررية، وانقسم العالم في إطار الحرب الباردة إلى قطبين: معسكر شرقي اشتراكي بزعامة الاتحاد السوفياتي ومعسكر غربي رأسمالي بزعامة الولايات المتحدة

الأمريكية، خاصة في ظل السباق نحو التسلح واكتساب السلاح النووي بفضل التقدم العلمي والتقني، وانتهى الأمر بتفكيك الاتحاد السوفياتي وظهور النظام العالمي الجديد أحادي القطب بقيادة أمريكية، عسكريا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا وتكنولوجيا.

وشكلت هجومات 11 سبتمبر 2001 على الولايات المتحدة الأمريكية توجها دوليا نحو الحرب على الإرهاب، باتخاذ تدابير قانونية ومؤسسية في إطار مجلس الأمن الدولي، الأمر الذي أدى إلى تراجع سيادة الدولة، مع التدخل في شؤونها الداخلية عن طريق التدخل الإنساني لصالح الأقليات وحماية حقوق الإنسان وحل النزاعات الدولية.

وتمثل الثورة الصناعية الثالثة أبرز ملامح المجتمع الدولي المعاصر، من خلال التطور الكبير في مجالات العقول الإلكترونية والهندسة الفضائية والطبية، يقابها تصاعد حدة التوترات في مختلف مناطق العالم بسبب الحروب الأهلية وتزايد التهديدات الإرهابية والمشاكل البيئية، والتي أدت كلها إلى تفاقم ظاهرة الهجرة القسرية.